

ذكرياتي عن وادي الفرات قبل خمسة وأربعين عاماً

"هذا تسجيل مختصر لزيارة قصيرة الأمد، قدر لي أن أقوم بها قبل خمسة وأربعين عاماً إلى وادي الفرات الخصب بترتبه والقوي بعروبتة، والثري بكثرة من كرماء الهزة وجزال المروءة. وقد أردت أن أكتب ما بقي في ذاكراتي مما رأيته وسمعته وحققته إذ ذاك، ما وسعني الإدراك والانتباه ومكنتني الفرص خلال عملي الرسمي في تلك الأيام العصيبة، وأن أنشره في هذه المجلة الفراتية الصغيرة الحجم الموفرة القدر والنفع.. ذلك ليتبين أبناء هذا الوادي الأمثال ما كانت عليه ديارهم في ذلك الماضي الآخذ بالتواري وراء حجب النسيان وما صارت إليه من التبدل والتقدم في الحاضر الذي يعيشون فيه. فإن أجدت التعبير والوصف وحزت رضاء من أدركوا زمن هذه الزيارة فبها ونعمت. وإلا فمعذرتي واضحة من بعد العهد وقلة التسعد. والكمال لله وحده وبه المستعان.

وبعد فقد طوحت بي الأقدار في جملة ما طوحت خلال الحرب العالمية الأولى إلى مدينة دير الزور . حاضرة وادي الفرات وعروس بلدانه . وكان سبب هذا هو تكليفي بمهمة الإشراف على أعمال مكافحة الآفة المزمنة في ذلك الوادي، وأعني بها آفة الجراد، بحكم أنني في الأصل مهندس زراعي مفروض فيه أن يعرف هذه الأعمال، ويجول ويصول حيالها. وقد كنت وقتئذ ضابطاً احتياطياً في الجيش العثماني برتبة ملازم ثاني، أعمل في الفرقة السابعة والعشرين التي كانت ترابط بين بلدتي الناصرة وعكا في شمالي فلسطين الشهيدة، إلا أنني قبيل تلقي الأمر بالسفر إلى دير الزور، كنت حديث الخروج من المستشفى أنفض عني غبار الموت وأقضي دور النقاهة من حمى خبيثة تعرف بالراجعة، عقلت بي ولم

أتخلص منها إلا بأعجوبة. فقد كانت هذه والحمي النمشية (التي فوس) التي هي أخبث وأفتك منتشرتين بين الجنود وعامة الشعب في كل البلاد السورية أو أكثرها تجرفان العشرات والمئات إلى القبور في كل يوم، ولا ينجو منهما بعد الوقوع إلا من كان طويل العمر وعصمه ربه. ولذلك لما أمرت بالسفر، وجمت وامتعضت خشية أن لا يحتل جسمي السقيم مشاق المكافحة المطلوبة مني في براري وادي الفرات الشاسعة الواسعة المصابة هي أيضاً بتلك الأمراض وبغيرها من مصائب الحرب المذكورة على ما قيل لي حينما استعملت. وإذا كانت الإيعازات العسكرية لا مرد لها، سلمت أمري إلى الله وتمثلت بقول الشاعر:

مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها

وأخذت القطار من محطة العفولة في مرج ابن عامر، وتوجهت إلى دمشق ومنها إلى حلب، فوصلتها في اليوم العشرين من آذار عام 1916. والحالة إذ ذاك في كل البلاد السورية جد حرجة من جراء تلك الحرب الضروس التي كانت نيرانها متأججة في قارة أوروبا كلها وفي أكثر أقطار آسية. ولا سيما في المملكة العثمانية، التي فتحت جبهات عديدة. فجبهة في القفقاس تجاه الروس الذين خرقوها وتدفقوا واكتسحوا ولايات الأناضول الشرقية، وعاثوا هناك هم وأنصارهم الأرمن أي عبث، وثلاث جبهات تجاه الإنكليز الراجعين في جنائ قلعة والمتقدمين في بادية سيناء والمحاصرين في كوت العمارة في العراق. هذا والأمراض السارية والعادية ممتدة، والجوع والحرمان وأمثالهما من الكروب والخطوب مشتدة، ووسائل النقل كالمركبات السود المصنوعة من الجلد المدعوة بالحنطور، وتلك المصنوعة من الخشب المدعوة (يايلي) أي ذات الرفاصات، قد توارت بعد أن صادر الجيش دوابها، وجند سائقها.

ورحت أسأل عن واسطة من تلك الوسائل نقلني إلى دير الزور التي قيل لي أنها تبعد ثلاثة أو أربعة أيام، وجلت في خانات حلب. التي انقلبت الآن إلى

مرائب عقب ظهور السيارات وبطلان استعمال المركبات، فلم أحظ بما طلبت، وضاقَت بي السبل إلى أن صادفت تلميذاً باراً بي، كان موظفاً في دائرة البريد، وقد توفي قبل بضع سنوات، فانبهرى لتفريج كربتي، ودبر لي سبيلاً للسفر في مركبة متعهد نقل البريد من حلب إلى دير الزور، التي تواصل السير في الليل والنهار، وضاعف معروفه تغمده الله برحمته، فهيأ لي زاداً شهياً ووافراً.. ولما استكثرت الزاد، بعد أن شكرت المزود، قال: خله، إنك سوف لا تجد في كل الطريق ما تقتات به. وما فضل عنك تعطيه لذوي البطون الخاوية، وما أكثرهم هناك. فكان الأمر كما قال.

وجاءت المركبة بعد منتصف الليل بساعة إلى الفندق الذي كنت فيه. فإذا بها مما أكل الدهر عليه وشرب، ومن الطراز المعروف في شمالي بلاد الشام بالبرجة الخاص بنقل الأثقال لا بنقل البشر. لأنها محرومة مما يدعونه رفاصات التي تخفف الارتجاج وتهون الانزعاج. وزاد في الطين بلة أنها كانت تحمل حقائب البريد الضخمة المصنوعة. من الجلد السميك وأكياس الشعر والتبن لدابتيها، ولا سبيل للتمدد والهجوم. ولما رأيت هذه الحالة، حوقلت وحسببت، ولو كان الأمر بيدي لعدلت عن السفر، ثم رضخت لحكم القدر، وتمثلت بقول الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وعالجت الوضع، وأفرجت مجالاً للركوب بين الحقائب والأكياس المذكورة، وصعدت وأقحمت نفسي وانطويت خشية أن يدق رأسي السقف، ويتلقى ضرباته. وقلت للحوذي: سر على بركات الله. وراحت مركبتنا في ظلام الليل الدامس وسكونه الرهيب تجتاز شوارع حلب المتجهة نحو باب النيرب، وهي تعلو وتهبط وتتهادى وتحدث جلبة وطققة تزعجان أهل حلب النيام آنئذ، وترجني أنا المنكوب بركوبها رجاً عنيفاً يخدش الأسماع، ويضعضع الأضلاع ولولا أنني كنت وقتئذ في عنفوان الشباب وغضاضة الأهاب، لما كان لي سبيل لتحمل هذه المركبة

المشؤومة التي استمرت دون انقطاع ثلاثة أيام بلياليها، وتحسب الآن ركبة أشقى
سيارات الشحن في جانبها نعمة وأي نعمة. ومن الغريب أنني باستمرار الرفع
والخفض والجذب، والدفع في أيام سفري التالية ولياليه اعتدت هذه المركبة (مكره
أخوك لا بطل). وصرت كلما تملكني النعاس أهوم تهوياً حتى صح في قول
الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تنقع

هذا وبعد أن غادرنا حلب، وتركنا وراءنا أحياءها وكرومها الشرقية، خرجنا
إلى الفضاء الرحب، وسلكنا طريقاً معبداً حسب تعبيد تلك الأيام، يتجه اتجاهاً سويماً
نحو الشرق وسط سهول مترامية الأطراف بعيدة الآفاق مسطحة مستوية، لم تلاحظ
فيها عوجاً ولا أمثاً، خلاء قواء، لم نصادف فيها أحداً من المارة. وكيف نصادف،
والوقت في الهزيع الثالث من الليل، حتى في رابعة نهار الأيام التالية، كنا أيضاً
قلما نصادف أحداً ممن هم في سن الشباب أو الكهولة غير المجندين. إذ كان
هؤلاء يتجنبون الطرق العامة لئلا يسألهم فرسان الدرك المتجولون عن الوثيقة
العسكرية، حتى إذا لم يبرزوها، وقفوهم وساقوهم باسم قرار من الجيش أو قنصوهم
ما يحملونه من الدريهمات. ومن ثم كان لا يتجول وقتئذ بانطلاق ويسافر براحة إلا
من كان فوق الستين أو تحت العشرين من أبناء الحاضرة. أو من كان بدوياً شديداً
السمة عبوساً قمطيراً، قد أرخى جدائله، وضررها ولف عباءته على كتفه، وتكعب
من أدوات الفتك والضرب بندقية يونانية أو دبوساً محدداً أو نحوهما، وتمنطق
بالخنجر، ومشى في الأرض مختلاً فخوراً بأنه من أقحاح البدو ومن أعقاب عنز
بن وائل. أو عمرو بن معدي كرب الزبيدي، لا تكليف عليه ولا تتريب، بل له
الغنم من أمن الدولة وعدلها. وعلى أبناء الحواضر الغرم من ضرائب المال والدم.
وكانت السماء ليلتئذ صافية الأديم نهدي بنجومها الساطعة، وتترأى لنا
أشباح بعض القرى الغارقة في نومها وظلمتها، والمنتشرة على يمين الطريق

ويساره. وأردت أن أبدد ملك السرى مازال النوم غير ميسور كما ينبغي، فأخذت بالحديث مع رفيق الطريق وهو الحوذي. وسألته عن اسمه وبلدته وعمله، فإذا به رجل تركي أمي من إحدى قرى الأناضول واسمه طورمش ومهنته حوذي أباً عن جد. ومن ثم كان على شيء من القسوة والجلفة شأن أبناء هذه المهنة في كل مكان وزمان. وقد شكى لي متعهد نقل البريد الذي كلفه بهذه الأسفار الشاقة بين حلب ودير الزور التي قبلها لقاء استثنائه من النفير العام. وأن المتعهد لا يعطيه راتباً كافياً بأوده وأود عياله الكثر، ولا يعلف دوابه الهزيلة العاجزة عن إغذاذ السير بالقدر الوافي، وأنه وأنه.. الخ. وكان هذا الحوذي كلما تباطأت دوابه الموصوفة أنهال عليها ضرباً بسوطه وقذفها وقذف المتعهد أيضاً بكل ما في قاموس اللغة التركية من الشتائم والسباب. فكنت أخفف غلواءه بالكلمات التي يفهمها، وأدعوه إلى أن يتقي الله، ولا يقذف لكي يبسر لنا سبحانه وتعالى اجتياز هذه الطريق الفقراء دونما حادث. فكان يطيعني تارة ويعصيني أخرى، وأنا أداوره وأناوله من الزاد والتبغ اللذين حملتهما حتى أسلس لي قيادته جلهما إن لم يكن كلها.

هذا وبعد حلب بساعة ظهرت لنا في جنوبي الطريق عن بعد قرية غارقة في رقادها وظلمتها، فسألت الحوذي عنها، فقال هي النيرب. ثم مررنا من وسط قرية اسمها جبرين، دورها قباب من الطين مخروطية الشكل مكتظ بعضها على بعض شأن كل القرى في مشارق حمص وحماه وحلب التي اعتمدت على هذا الطراز من المساكن، وقد علمت فيما بعد أن هذا الاعتماد الذي لا يعرف من أي عصر بدأ إنما حصل بحكم انقراض الحراج وفقدان الأشجار والأحجار أو صعوبة نقلها وجلبها ونحتها، وقالوا إن هذه القباب القبيحة الشكل الشبيهة بأكواخ زنوج مجاهيل إفريقية يرغبها الفلاحون في البلاد المذكورة لأنها سهلة العمل باللبن الذي يعمل من التراب الجاهز في كل مكان، ويجفف بالشمس، فهي بالتالي أسرع نوالاً وأرخص ثمناً من الدور الحجرية وأرطب في الصيف وأدفأ في الشتاء وأمنع

للو كف. وإذا حدثت كارثة أو فتنة واقتضى أن يخليها أصحابها ويجلوا كما كان يجري مراراً في العهود الماضية، لا يؤسف على تركها كما هي. ثم مررنا من قرية دويرنية ومير الحسين ومن شمالي قرية أم التركية. ثم بعد مسافة مررنا من جنوبي قرية أبو دنة وشمالي قرية جب الصفا. وهنا خرجنا من حدود قضاء جبل سمعان ودخلنا قضاء الباب، ثم مررنا من فوق جسر على نهر الذهب القادم من بلدة الباب والذاهب جنوباً للانصباب في مملحة الجبول. ثم تلاحقت القرى أمثال كويرس الغربية وكويرس الشرقية وحميمة الكبرى والأحمدية. إلى أن بلغنا بعد شروق الشمس قرية دير حافر. فإذا بها كبيرة في النسبة وفيها مخفر للدرك وماء وآبار وبضعة حوانيت تحوي بعض الحاجات. وانتهزت فرصة وقوف المركبة للاستجمام وإطعام الدواب فزرت مخفر الدرك وحادثت جنوده وسألتهم عن أسماء القرى التي مررنا بها وسنمر بها بين حلب ومسكنة. وعن أمور أخرى تتعلق بجغرافية هذه الأنحاء. شأني في السؤال عن كل أرض أزورها. فأجابوني ما وسعهم الفهم والعلم. إن دير حافر تبعد عن حلب 57 كيلو متراً وأنها مركز ناحية تتبع قضاء الباب وتشمل قرى عديدة تمتد حتى بحيرة الجبول وحدود البادية الفقراء. وسألتهم عن الجبال الظاهرة للعيان في الأفق الجنوبي البعيد، فقالوا هذا جبل الحص، (وصوابه الأحص). وهذا الذي في شرقه جبل الشبيث، وإن في كل منهما سهولاً واسعة وزروعاً خصبة وقرى عديدة. وسألت عن منابت سكان قرى دير حافر، فقالوا هم أعراب بداءة رحل في الأصل، ثم تحضروا واستقلحوا (أي صاروا فلاحين). وبنوا هذه القرى العائدة لوجهاء حلب وسعائها أو للأملك المدورة. وهم ينتسبون إلى عشائر مختلفة متعددة كالحديديين الغناطسة والنعيم والعون والأبو جميل والفردون والأبي سبيع وبنو زيد والهنادي (وهؤلاء أصلهم من مصر) وكل قرى دير حافر ليست إلا ضياع أو ضيعات ذات قباب مخروطية من التي قدمنا وصفها، لا يزيد عدد نفوس الواحدة عن المئة.

وقد تذكرت وأنا أستشرف هذه البراري المترامية الأطراف الممتدة في مشارق حلب أنها كانت تدعى (برية خساف) بضم الخاء فسألت عن معنى خساف أجابوا أنه اسم قرية تبعد إلى الجنوب نحو ساعة، وهي على الشاطئ الشرقي لبحيرة الجبول. ورجعت حين تسطير هذا المقال إلى الجغرافي العربي الكبير ياقوت الحموي، فوجدته يقول في كتابه (معجم البلدان) برية خساف مشهورة عند أهل حلب وبالس كان بها قرى وأثر عمارة وهي تمتد خمسة عشر ميلاً. فقله كان بها قرى وأثر عمارة، يدل على أن هذه القرى أو الضياع التي عددناها وقرى جبلي الأحص، والشبيث المبني كل منها فوق رسوم طامسة وخرائب دارسة كانت عامرة زاهرة قبل الإسلام وبعده في عصوره الأولى. ثم خرجت قبل عهد ياقوت الحموي المتوفي سنة 626هـ وأكبر الظن بأن خرابها الأخير حدث على أيدي التتار المغول الذين جاءوا عدة مرات، واكتسحوا مدينة حلب وقراها الشرقية والقبلية، وعاثوا وافحشوا، وقد ظلت هذه القرى على ما يظهر خراباً يباباً ستة أو سبعة قرون طوال عهد السلاطين المماليك والعثمانيين أي إلى قبل نصف قرن أو أكثر (حوالي سنة 267هـ) حينما نظمت لدولة العثمانية الولايات ونشرت لواء الأمن والعدل هنا وفي وادي الفرات الذي سيأتي بحثه. وانتبه تجار الحبوب الأوروبيون إلى جودة القمح القاسي الذي تنتجه هذه الأنحاء فطلبوها وبدأ تصديرها عن طريق ميناء الإسكندرونة فانتعشت الزراعة وحرثت هذه البراري البور، وعمرت الخرائب تدريجياً، وقطنها الأعراب المذكورين، وأكثرهم من عشيرة الولدة الكبيرة الذين صاروا حضرا بعد أن كانوا رحلاً. والعمران هنا يدوم ويمتد نحو البادية الفقراء بنسبة امتداد رواق الأمن والعدل وهطول الأمطار وخصب المواسم، وينقلب الأمر إلى عكسه ويعود الخراب والافقرار، ويرجع من تحضر من أولئك الأعراب إلى البداوة إذا حدث خلاف ما ذكرناه كما جرى خلال الحرب العالمية الأولى.

ومن المؤسف أن لا ترى في هذه الضياع المحيطة بدير حافر حتى الآن

شجرة قائمة يمكن أن تلجأ إلى ظلها في حمارة القيظ. ولا بناء صالحاً تأوي إليه إلا ما ندر في قليل من تلك الضياع وأخصها في قرية حميمة الكبرى التي رأيت قبل بضع سنوات في زيارتي الحديثة لهذه الأنحاء أن أصحابها من آل المدرس الحلبيين شادوا مباني مزرعة نموذجية منقطعة النظير في سورية كلها بجسامتها وانتظامها، وحفروا الآبار وركبوا المحركات وزرعوا مساحات واسعة من الأقطان والمحاصيل الصيفية الأخرى.

وقد ذكر ياقوت دير حافر أنه بين حلب وبالس، وأورد فيه شعراً لأبي عبد الله القسراني:

إلى كم ترامت بالس بمسافر وكم حافر أدميت يا دير حافر

هذا وبعد دير حافر انحرفت بنا الطريق نحو الشرقي الجنوبي فدخلنا حدود قضاء منبج، ومررنا من حذاء قرى متتابعة أسماؤها عاقولة وأم عدسة وأبو مقبرة والمهدوم وكوشش وخان الشعير. وفي المهذوم رأينا جباً ترده المواشي بكثرة. وزعم الرعاة أن ماء أجاج لا يصلح لشرب البشر. ورأينا خان الشعر قائماً فوق تل صغير جنوبي الطريق. وفي خان الشعر هذا انتهت هضبة حلب ذات التربة الحمراء وانتهت سهولها الأعذاء، وبدأنا نهبط نحو وادي الفرات ونمر بأماكن ذات تلعات ومنخفضات وأوعار، وأشرفنا عن بعد على نهر الفرات العظيم بوسعته وروعته. وتدفق مياهه الهائلة المنحدرة بسرعة نحو القطر العراقي. وقد رأينا هنا قادماً من الشمال من الولايات التركية الشرقية ومتجهاً نحو الجنوب يتلوى التواءات عديدة ويحدث جزائر كثيرة يدعونها (حوائج) جمع (حويجة) وهو وسط واد أجرد مؤلف على ما ظهر لي من رواسب هذا النهر التي تراكمت منذ مئات ألوف القرون الخالية. وليس فيه سوى بعض أشجار الطرفاء وبعض الزروع الشتوية التي تسقى بواسطة الآلات التي عرفها التاريخ في أقدم عصوره تدعى بالكرود (جمع كرد بفتح الكاف) وهنالك بعض الأراضي المعشوشبة خلال فصل الربيع القصير

الأجل في هذه الربوع. وفي جنوبي وادي الفرات ويدعونه هنا (حاوي) يمتد جدار شاهق مؤلف من أكام وروابي متسلسلة ذات صخور طباشيرية بيض تبهر الأبصار بانعكاس أشعة الشمس في ضحى النهار وظهره.

وعقب انحدارنا من خان الشعر وعندما صارت الشمس في كبد السماء بلغنا قرية مسكنة التي علمت فيما بعد أنها على بعد مئة كيلو متر عن حلب، فوقفنا هنا للاستجمام. ومسكنة هذه ضيعة في سفح الأحكام والروابي الطباشيرية البيض المذكورة، تقع في غربي الفرات على بعد كيلو متر ونيف. وفيها مخفر للدرك مبني فوق إحدى تلك الروابي وعدة حوانيت تحتوي على بعض الأشياء الضرورية. وقد تبين لي من المسافة التي قطعناها خلال اثنتي عشرة ساعة أن معدل سيرنا في هذه المركبة العرجاء ثمانية كيلو مترات في الساعة (والعجلة من الشيطان).

وقد استتكرت يومئذ هذا الاسم (مسكنة) الذي يذكر بالذلة والمسكنة المضروبين على بني إسرائيل وسألت نفسي من أين أتوا بهذا الاسم المكروه؟ ومن الذي أتى به ومتى ولماذا؟ بعد أن كان اسمها في العهد العربي (بالس) وفي العهد الروماني (باربا ليسوس).

وسألت رجل الدرك عما إذا كانوا يعلمون شيئاً عن ماضي مسكنة وحاضرها وعن هذا الأسطول من القوارب النهرية الكثيرة التي كنت ألمحها متلاحقة تنحدر مع ماء الفرات؟ فبعثوا واستدعوا لي اثنين من شيوخ مسكنة المفروض فيهم الفهم والعلم، فقالوا ما تفسيره حسب مفهومي أنا وما أنقله بتصرف: إن سكان مسكنة الحاضرين هم أعراب متحضرون ينتسبون إلى فخذ خفاجة من عشيرة الولدة الزبيدية. وفسروا كلمة زبيدية بأنهم من أعقاب الفارس العربي الشهير عمرو بن معدي كرب الزبيدي دون أن يأتيا بدليل.

وقالا إن قريتهم ومئات القرى والقرى الممتدة بينهم وبين بلدتي الباب

ومنبح كانت من الجفتلكات السلطانية الخاصة بالسلطان عبد الحميد. ثم عقب إعلان الدستور العثماني سنة 1908 تنازل هو عنها، ودورها إلى الخزانة العامة، فسميت (الأملاك المدورة). وإنهم في عهد السلطان المذكور الذي يترحمون عليه بلهفة، كانوا سعداء، صدرهم معترزاً وعطفهم مهترزاً وضيغهم ملتدزاً، لأنه حماهم وعني بشؤونهم أي عناية. فحماهم أولاً من تعدي الأعراب الرحل (عنزة وأمثالها) بواسطة جند سيار خاص من راكبي البغال الذين لو سرقت عنزة أحد فلاحي (الجفتلك) للحقوا فاعليها إلى أقصى البراري، وجروا أكبر شيخ فيهم إلى أن يعاقب الفاعلين، ويأتي بأضعاف ثمن العنزة المذكورة. وحماهم أيضاً من تسلط موظفي الحكومة ودركها بواسطة عمال وجباة تابعين لإدارة خاصة بأملاكه مركزها حلب. وقالوا إنه بفضل هذه الحماية والرعاية عمرت القرى النائية في أقصى الباب ومنبح وجبل الأحص ومطخ قنسرين. واستقرت عشيرة الولدة وغيرها من العشائر التي سمعت باسمها أيها السيد، وصار أبناؤها حراثين زراعيين منتجين، ولولا ذلك لظلت كما كانت قبل قرن أراض باثرة وخرباً دائرة وظل هؤلاء الأعراب تائهين حائرين وعنصر شغب وفتن.

وسألتهما عما إذ كان قد بقي حولهم أعراب رحل وأين يرحل هؤلاء؟ قالوا حولنا من هؤلاء أولاً عشيرة الفدعان العنزية الكبيرة التي لا تزال في صميم البداوة وجفوتها. ويليها بعض العشائر الصغيرة التي تحضر بعضها وقطن القرى وحرث وزرع وبقي أكثرها متعلقاً بحياة الحل والترحال وراء الإبل والغنم، فهؤلاء هم عشائر قضائي الباب ومنبح يمرون من برارينا الغربية والقبلية وقت النجعة عن طريق مسكنة وعنز وعنيز والرصافة وجبل البشرى. وأخص هذه العشائر بنو زيد وأبو خميس والكيار والوهب والولد علي. وهم قلما يبعدون في نجعتهم عن جبل البشرى، ثم يعودون في آخر فصل الربيع إلى قراهم في القضائين المذكورين، يحملون السمن والأصواف والحملان. ثم حدثاني عن ماضي مسكنة، فقالوا: نسمع

من العارفين أن لمسكنة هذه موقعاً جغرافياً هاماً. فهي أقرب نقطة إلى حلب، ويمر من أمامها كل يوم عدة سفن نهريّة تأتي من بلدة بيره جك (قلعة البيرة) القديمة، وبعد أن تمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقّة ودير الزور تنتهي في بلدة الفلوجة التي هي ميناء بغداد على الفرات. وإن هذه السفن والأصح أن يقال هذه القوارب ذات القعر المسطح ما برحت على الشكل والحال اللذين كانت عليهما منذ آلاف السنين، تنقل الركاب والمحاصيل الزراعية والسلع التجارية من شمالي بلاد الشام وجنوبي الأناضول إلى مدن الفرات حتّى تبلغ الفلوجة. وهي الآن (في السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى) تنقل المؤن والذخائر والمدافع والبنادق والطائرات إلى الجيش العثماني والألماني الواقفين تجاه الإنكليز الذين زحفوا من البصرة للاستيلاء على بغداد. وقالوا رداً على سؤالي إن البواخر النهريّة التي تعمل في نهر دجلة بين بغداد والبصرة يمكن أن تعمل أيضاً في نهر الفرات وتصعد فيه وتبلغ مسكنة فقط. والدليل على ذلك أن الوالي المصلح الكبير مدحت باشا كان أول من أحدث مصلحة ملاحية تجارية على الفرات. وقد دامت هذه المصلحة مدة أربع سنوات وصارت تصل بواخرها إلى مسكنة. ثم ألغيت بانتقال الباشا المذكور من بغداد، وعلى أثر اصطدام أحدها بحويجة قرب مسكنة. على أن هذه الفكرة ظلت تراود أحلام ذوي الهمم حتّى انبرى أحد أثرياء دير الزور. وقد نسيت اسمه الذي ذكره فحاول قبيل الحرب العالمية الأولى أن يضع باخرة نهريّة في الفرات. وراح إلى أوروبا واشترى أجزاء باخرة مستعملة تناسب أنهار تلك البلاد. وحمل هذه الأجزاء إلى بيروت فحلب فمسكنة. واشتغل مهندسوها بتركيبها مدة ستة أشهر حتّى إذا برزت للوجود أوقدوها وزحفوا بها إلى الفلوجة بين التصفيق والتهليل. لكنهم يا للأسف لما أرادوا الرجوع والصعود بها عجزت وحرنت لضعف محركاتها عن مقاومة تيار الفرات المنحدر، لأنهم لم يحسبوا قوة هذا التيار، ولم يركبوا في الباخرة المحركات المتحملة لقوة الصعود، فتوقفت الباخرة عن العمل. وداهمت

الحرب العالمية أصحابها فلم يستطيعوا أن يتداركوا الأمر وذهبت متاعبهم وأموالهم أدراج الرياح.

وبعد مسكنة الحاضرة بساعة على الماشي تقع بلدة بالس (مسكنة القديمة) التي كان اسمها بار باليسوس ولا ريب في أن هذه البلدة رومانية بيزنطية في الأصل كالرقة والرصافة والبصرة والصالحية وغيرها من المدن المبنية على ضفتي الفرات. وبالس مبنية على هضبة تعلو عن مستوى وادي الفرات نحو عشرين متراً. وهي تطل بخرائبها الواسعة ومذنتها الجميلة. وقد ذكر المؤرخون الذين راجعت كتبهم حين كتابة هذا المقال أن هذه البلدة في العصور السابقة لعهد الرومان وطوال عهد الرومان ثم الروم البيزنطيين ثم العهود الإسلامية كانت ثغراً وممرّاً تجارياً ومركز مناقلات (ترانسيت) بين بلاد الشام والعراق بحكم موقعها الجغرافي على ضفة الفرات. لأن الفرات كان يجري في جانبها تماماً ويغمر الأراضي الواسعة التي تمر منها الآن طريق السيارات الحاضرة حتى قرية ردة صغيرة.

وذكروا أن الروم البيزنطيين بينما كانوا ينعمون بها فاجأتهم طلائع الفتح الإسلامي. وجاءهم سنة 15 هـ القائد حبيب بن مسلمة الفهري الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح على رأس جيش لفتح بالس وغيرها. ففاوض حبيب أهل بالس وخبرهم بين الجزية والجلاء. فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة، فأسكن هو مكانهم قوماً من العرب والبوادي. وبعد مئة سنة كان توجه مسلمة بن عبد الملك الأموي غازياً الروم من جهة الثغور الجزرية عسكر ببالس، فأتاه أهلها وأهل القرى المجاورة لها كبويلس وقاصرين وعابدين وصفين (وليس الآن أثر لهذه القرى ولا لأسمائها فأين كانت يا ترى؟) فسألوه أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يؤخذ. فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة. ليس لهذا أيضاً أثر في يومنا. فأين كان مبدؤه ومنتهاه ومجره وطوله وعرضه ومساحة الأراضي التي كان يرويها؟ ورسم سور

المدينة. ولما مات مسلمة صارت بالس لورثته إلى أن أخذتها منهم الدولة العباسية.

وعلى الرغم من استمرار المناقلات التجارية والصادرات الزراعية وربما الصناعية أيضاً في بالس ودوام العمران والازدهار أيضاً أصابها من بعد حوادث وكوارث عديدة كالزلازل والمحاصرات الشديدة طوال العهد العباسي. وأخذ نهر الفرات في القرن الخامس الهجري يبتعد عنها رويداً رويداً شأنه من حين إلى آخر في أكثر مجراه الذي تكون هناك الأرض رسوبية رخاء. وما زال يبتعد حتى صار بينه وبينها في القرن السادس والسابع الهجريين حوالي ثلاثة كيلو مترات على ما هو الحال في يومنا. وفي العهد العباسي الذي أهمل بلاد الشام ومصر وحصر وكده في العراق وحده تعاورت بالس أيدي المتغلبين على المملكة الحلبية كالحمدانيين والموذاسيين والسلجوقيين والأتابكين والأيوبيين فكانت تتلقى الغارات والمحاصرات من هؤلاء المتنازعين بعضهم إثر بعض، وحتى من الصليبيين الذين كانوا امتدوا شمالاً وبلغوا الرها (أورفة). وبهذا كله ضعف شأن بالس وضل ريعها ونفعها.

على أنها ظلت تقاوم وتجبر كسرهما، وتلم شعنها كلما أصيبت حتى طرقها البلاء الأعظم من التتار المغول، يقودهم هولاكو حفيد جنكيز خان بعد أن استولى على بغداد سنة 656 هـ وقضى على أعظم خلافة إسلامية وأروع حضارة عربية. جاء هذا الطاغية في السنة التالية (657 هـ) إلى بلاد الشام وعبر الفرات بجيوشه الجرارة. واكتسح حلب ودمشق وما بينهما، وفعل الأفاعيل المنكرة على ما هو مفصل في المطولات. فإن كانت هاتان المدينتان الرئيسيتان وقبلهما بغداد لم تصمد أمام ذلك السيل الجارف هل يرجى أن تصمد بلدة صغيرة ضعيفة منحرفة على سيف البادية كبالس؟

أجل إن التتار المغول قد أسقطوا بالس في ذلك التاريخ وخربوها في جملة

ما خربوا، وجعلوها قاعاً صفصفاً مجلى الأبصار وموضع الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا الواحد القهار.

وبعد استراحة ساعتين في مسكنة الحديثة استأنفنا السير في حاوي الفرات فوصلنا قرب العصر إلى حذاء مسكنة القديمة. فقلت للحوذي قف وأرح دوابك وانتظرنى ريثما أصعد وأزور هذه الخرائب. وتسلفت الهضبة وهزلت بادئ بدء نحو المئذنة. وسموت إليها ببصري وإذا بها رشيقة القوام جميلة البنيان صامدة على كر الدهور وقسوة الطبيعة، لولا خراب قسمها الأعلى. وهي الآن تتدب مجدها الدائر ويتمها ووحدتها وزوال مسجدها وبلدتها من حولها. وهي مئذنة الأضلاع فوق قاعدة مربعة ومبنية بالآجر المشوي الأصفر اللون (المعروف في العراق بالطابوق)، وبابها من الجهة الغربية وعلوها على ما قدرت نحو اثنين وعشرين متراً، وذات سبع طبقات في كل منها طاقة، وسلمها ذو مئة وسبع درجات. وبعض مداميكها مزخرفة ومنقش. وعليها كتابة كوفية عجزت عن قراءتها لعلوها (تري، هل قرأها أحد حتى الآن؟) وأحسب أن هذه المئذنة من آثار الملك العادل نور الدين محمود زنكي (541 . 577هـ) الذي تعود إليه مئذنة الرقة القديمة ومسجدها الكبير أيضاً.

وهذا وبينما أنا أفكر في إمكان الصعود إلى هذه المئذنة لكي أشرف على ما حولها من المناظر، لمحت بعض الغلمان الرعاة فأشرت إليهم بالاقتراب ثم سألتهم عما إذا كان بالإمكان الصعود إلى هذه المئذنة، فأجابوا بالإيجاب، قلت لهم هيا، أروني همتكم، ولكل صاعد كذا من الدريهمات فتسلقوا أدراجها كالغفاريات، وأطلوا من أعلاها وصاحوا فتجاسرت حينئذ ولحقتهم وأطلت من ثم على مشهد غاية في الوسعة والروعة، يشمل خرائب بالس وأراضي مسكنة الحديثة ودورها ونهر الفرات العظيم المنحدر من الشمال إلى الجنوب، وما في وسطه من الحوايج (الجزائر) العديدة وما على ضفتيه من القرى والمزارع والمروج الخضراء ثم السهول

والبراري القفراء الممتدة على يمين الفرات ويساره والممعنة في البعد نحو الآفاق غير المتناهية في كل من الجزيرة والشامية. وسألت الرعاة عن أسماء ما كنت أراه من القرى قالوا وأشاروا إلى الشمال الغربي في الجزيرة قرية مريبط (وهي شمالي مسكنة الحديثة) وهذه اسمها كسره (تجاه مسكنة القديمة) وأمامك في الشامية قرية مسكنة وشعيب وسمومة. وأنت الآن وسط أراضي ردة الكبيرة، وبعدها ردة الصغيرة. ثم تأتيك الدبسي. وسألتهم عن بناء كبير كالحصن فوق أكمة بارزة، ألمحه في الأفق الشرقي البعيد. فقالوا هذه قلعة جعبر.

وبعد النزول من المئذنة أخذت بالتجوال بين الأطلال وأسعرت الخطأ لأتملى أكثر ما يمكن خلال الساعة التي عينتها لهذه الزيارة. فوجدت أن هذه الأطلال تمتد في مساحة كبيرة ربما بلغت نصف كيلو متر مربع. فبالس كانت إذن بليدة لا يقل سكانها عن خمسة عشر ألفاً. ورأيت حولها سوراً ينتهي عند شفير المنحدر الصخري المشرف على حاوي الفرات. ولهذا السور عدة أبواب كانت وقت زيارتي (أذار سنة 1916، ظاهرة للعيان إلى حد ما أخصها ذلك الذي في شمالها الغربي. وعلى مقربة من هذا الباب أطلال بناء قديم لعله كان داراً للحكومة وبناء آخر لعله كان حصناً للدفاع.

أما المدينة الأصلية المحاطة بالسور ففيها أطلال المسجد الذي كان حول المئذنة وأطلال كثير من الدور العربية الطراز. وهي مبنية من الآجر المشوي. لكن هذه الدور قد نبشت يا للأسف نبشاً فظيماً من قبل لصوص العاديات، شلت أيديهم ولعنوا. منذ زمن لا يعلم أوله. فلا ترى كيفما سوى حفائر عميقة عريضة وأخاديد مكشوفة وأكواماً من الأتربة المستخرجة وقطع لا تعد ولا تحصى من كسور الآجر والأواني الخزفية. مما دلني على أن النباشين كانوا يتحرون على هذه الأواني المشابهة لما ظهر في الرقة. ومازالوا ينبشون وبيعثرون من بالس وغيرها من الخرب الدائرة وبييعون ما يستخرجونه إلى غواة الآثار من وطنيين وإفرنج حتى

لم يبق شيء من ذلك على ما حسبت.

وكننت خلال الزيارة والهرولة بين الحفائر والأنقاض الباقية أتخيل نفسي أعيش وسط ماضي هذه البلدة التاريخية وأراها كما كانت في العهود الغابرة عامرة زاهرة رغم الحوادث والكوارث التي كانت تغاديها وتراوحها من حين إلى آخر، كما قدمنا، وأرى أهلها بعمائمهم وأقببتهم يغدون ويروحون ويبيعون ويشترون. وهناك قوافل البر ودوابها القادمة من أنحاء حلب وإنطاكية وميناء السويدية ومن غيرها من مدن الشام وموانئها، تفرغ حمولتها من مصنوعات البلاد الرومية والشامية وتسلمها إلى العشرات من السفن الفراتية لتأخذها إلى العراق وإيران والهند وغيرها. وهناك الجمالون والحمالون والملاحون والتجارة والسماصرة وموظفو المكوس يتدافعون بالمناكب. وأكاد أسمع حوارهم ولغظهم. وكننت أزداد تحلقاً في سماء الخيال فأناديهم وأرجو أن يقوم بعضهم من رسمه فيحدثني كيف كانت بلدتهم هذه تنبض بالحياة والحركة وهنية العيش من وفرة الموارد التجارية والزراعية التي كانت تتدفق عليهم، وكيف كانت أحوالهم وأعمالهم وتقاليدهم وثقافتهم وما إلى ذلك، فلا أجد لندائي مجيباً سوى رجع الصدى. فأقول: هيهات:

مافي الديار مجاوب غير الصدى المنصوت
ناديت (ايـن احبتي) فاجاب (ايـن احبتي)

وكننت أتذكر كيف قرع الدهر الخنون أهل بالس بنائبه وكدمهم بأنيا به، فأبعد الفرات عنهم وحرهم سهولة الحمل والنقل في السفن ثم جلب لهم في أدوار متعاقبة الزلازل المكرونة وأولئك الذين كانوا يطمعون بها ويحاولون الاستيلاء عليها. وكان آخرهم وأفظعهم عملاً وأثراً المغول التتار الذين أجهزوا كما قدمنا على ما تبقى فيها، ففتكوا وهتكوا وجعلوها خاوية على عروشها، ومصادقاً لقول الشاعر الذي اجتاز بآيوان كسرى بعد خرابه فكتب:

يا أيها المغرور بالدنيا اعتبر بديار كسرى فهي معتبر الوري

غنيت زمانا بالملوك واصبحت من بعد حادثة الزمان كما ترى
وانحدرت بعد هذه الزيارة الخاطفة من الهضبة وهولت نحو المركبة،
وقلت للهودي هيا، انطلق" ..

واستأنفنا السير نحو الشرق الجنوبي، وتركنا على يسارنا قرب شاطئ
الفرات قريتي رده الكبيرة والدبسي. وكنا نمر في سهول شاسعة فقراء إلى أن بلغنا
قرية (أبو هريرة) فتذكرت لهذا الصحابي أضرحة ومقامات في أماكن أخرى من
بلاد الشام. وإن كان محباً للرسول عليه الصلاة ويكثر من زيارته، فاضطر الرسول
ذات يوم إلى أن يقول له: يا أبا هريرة: زر غياً تزداد حياً. ورأيت شرقي خان أبي
هريرة قبة قيل إن فيها أضرحة بنات الصحابي المشار إليه. ولم أتحقق من صحة
ذلك.

وأذكر أنني صادفت في أبي هريرة مخيماً كبيراً لإحدى قوافل الأرمن الذين
أجلتهم الحكومة وقتئذ من ديارهم، في مختلف بقاع الأناضول وأوصلتهم إلى هنا
في طريقهم إلى دير الزور، فبراري الموصل وما بعدها. وكان المخيم يتألف من
مئات الخيام المخروطية المصفوفة والممتلئة بالرجال والنساء والأطفال، تسمع
هريهم كدوي النحل، وكان هؤلاء الأرمن المنكودي الحظ ضحية بعض أبناء
جلدتهم المغرورين بأضاليل المستعمرين ودعاياتهم، ففعلوا من المنكرات ما أوجب
عقابهم هذا. ولما وقفت هنيهة لأرى حالتهم تقدم نحوي بعض كبرائهم وظنوني من
ذوي الحل وال طول، وراحوا يشكون إلي ما أصابهم من البؤس والشقاء، ويسألون
عما ينتظرهم من العناء والبلاء ومنتهى المطاف الذي يقادون إليه، فأجبتهم بجهلي
ما يسألوني عنه، وانصرفت عنهم وأنا أتمتم قولي: "على نفسها جنت براقش".

وبعد اختلاس تهوية قصيرة في موقع (أبو هريرة) سرينا في منتصف
الليل، لأن المطلوب من مركبتنا هذه الخاصة بنقل حقائب البريد أن تصل الليل
بالنهار ولا تقف إلا لمأما. ورحنا نتمس الطريق المتشعث، ونسامر النجوم

المتألمة ونزوح السكون الرهيب السائد في هذا البر الأقفر بقعقة مركبتنا العجوز .
وقد تعذر علي النوم من شدة الاهتزاز والانتفاض . وانطلقت في سماء التفكير ،
ونحن إذ ذاك في معمعان الحرب العالمية الأولى . أستعرض أهوال هذه الحرب
الضروس وفجائعها . الدائرة منذ سنتين . وكأنني أرى الجيوش الجرارة التي تتطاحن
في مختلف جبهات القتال وفي معظم أقطار الدنيا وأحسب الأرواح التي تزهق
والمدن والقرى التي تخرب والأمراض السارية والجوائح العادية من تهجير وتشريد
وجوع وبؤس وشقاء ويتم وتكل . وأسائل نفسي متى تنتهي هذه الحرب وعلى أي
شكل ومن يبقى بعدها ومن يذهب ، وأترنم بقول الشاعر :
الليل حواج والكباش تنطح نطاح اسند ما أراها تصططح

فمن نجا برأسه فقد ربح

وكنت أبادل رفيقي الحودي الحديث وأهبط إلى مستوى إدراكه.. لنألا ينعس
وتأخذه سنة من النوم على أثر التعب والسهو والهز . وقد يرمينا في داهية إذا كبا .
لأن طريقنا غير معبدة . وهناك كثير من الغدران والمسائل والأخاديد التي يخشى
من وقوعنا فيها .

وقبيل الفجر بساعة بدأنا نرى أشباحاً ونسمع أصواتاً وضوضاء وصهيل
خيل ورغاء إبل ، فسألت الحودي عنها فقال : هؤلاء بدو باتوا هنا الليلة ، ويستعدون
الآن للرحيل والظعن . واستوضحته فقال : هذا تشريق إلى البراري البعيدة ، يراعون
إبلهم وغنمهم من الكلاً النامي هناك . ولما اقتربنا من الظعون ، ويقصدون بها الإبل
المحملة ، رأيت منظراً عجيباً قرت به عيناى غير المعتادة عليه وودت لو تطول
مرافقتي له . فقد بدأت الظعون تمشي الهوينا وتتهادى ، وصرت أسمع محاورات
النساء في هودجهن ومناغاة الأطفال ، وأرى حول الظعون فرساناً مدججين هم
حماة المال والعيال ، ومشاة زاحفين لا يخلون من السلاح ، وخيلاً وإبلاً وغنماً ..
منتشرة على مسافة بضع مئات من الأمتار وعلى سجيئها . وكان بعض الرجال

يتنادون ويتصايحون، ويمثلون لي أحسن تمثيل ماكنت أحفظه عنهم من قبل.
اجمعوا امرهم مساء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل دون ذاك رغاء

وكان منظر هؤلاء البدو أمامي آنئذ، والوقت بزوغ الفجر وتعارف الوجوه
من أجمل مناظر البادية التي بدأت ألمسها. لاسيما ونحن في عنفوان الربيع وزمن
نمو الأعشاب وبروز الشيح والقيصوم والخزامى، ومكاننا وسك البراري المستوية أي
استواء والممعة في البعد حتى الآفاق التي لا حدود لها.

والحق أن روعة الفجر أو السحر لا تبدو على أتمها إلا في البادية، ولا
صبح في الجمال كصبحها، ولا نهار في الشدة كنهارها. واقترب بعض مشاتهم من
مركبتنا وأخذوا يحدجون النظر إلينا، فسألتهم إلى أي الأعراب ينتمون وإلى أي
جهة يقصدون. وأذكر أنهم، وقد أرادوا الكتمان، قالوا نحن من عرب الله وقاصدون
باب الله الكريم، وأشاروا بأناملهم نحو الآفاق الشرقية الجنوبية، فلم أشأ تعميق
الحديث، ودعوت لهم بالسلامة وانطلقت أتمتم في نفسي هؤلاء يعملون بقول: (أكتم
ذهابك وذهبك ومذهبك).

ولما بزغت الشمس وبرزت السهول والتلاع الممعة في البعد رأينا الفرات
العظيم لا يزال يتدفق بأواجه الهادرة، ويحدث التواءات وحوايج عديدة من حين
إلى حين، وكانت طريقنا تبعد عنه تارة، فيغيب، وتقترب تارة فيبدو. ونرى في
وسطه سفناً كثيرة أخذ بعضها برقاب بعض. علمنا من بعد أنها آتية من البيرة
وجرابلس وموسوقة والمدافع والأسلحة الثقيلة والمعدات والذخائر الحربية المرسلة
إلى جبهة القتال في العراق، وكانت كوت العمارة على وشك السقوط بيد الأتراك
الذين حاصروا فيها الإنكليز.

ولما صرنا في تلك السهول متجهين إلى موقع (الحمام) قلت في نفسي،
الله أعلم أننا الآن نجتاز الأرض المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم (صفين)

وظنها بكسر الصاد والفاء. وهي الأرض التي وقعت فيها أشأم وأهول معركة بين جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب القادم من العراق، وجيش معاوية ابن أبي سفيان القادم من الشام (البلاد السورية كلها). وحلقت في سماء الخيال وصرت كأنني أسمع صياح الفرسان وتلاطم الكتائب وقراع السلاح وضرب السيوف ورنين القسي وأرى القتلى والجرحى ملأوا هذا السهل وصبغوه بدمائهم الذكية الحمراء يا للحسرة. وتذكرت ما كنت أقرؤه في كتب التاريخ من جنود هذين الجيشين المتقاتلين كان جلهم من صحابة رسول الله وتابعيهم، وعددهم فيما قبل أزيد من مائة ألف مع علي وأكثر من تسعين ألف مع معاوية. وقد بقي الجيشان بادئ ذي بدء ثلاثة أشهر يتبادلان ويتفاوضان بغية الوصول إلى تسوية. ولما أخفقت مساعي الوفود الذاهبة الآتية وعيل الصبر اصطدما وتلاحما طوال ثلاثة أيام مدهشة هلك خلالها من الفريقين أكثر من ثلث العدد المذكورين، وضاعت الجهود المبذولة والدماء المسفوكة سدى في سبيل عرض الدنيا وشهوة الحكم. وكنت أسأل نفسي ما السبب في اختيار الجيشين هذه البقعة القفراء (أرض صفين) حيث لا ظل ولا زاد ولا ماء إلا ماء الفرات الصعب المنال. وكيف كانا يتدبران الأقوات والأرزاق لتلك الألوفا المؤلفة ومعها الخيل والجمال والأثقال ووسائل الحرب والضرب ومداداة الجرحى والمرضى؟..

ووقعة صفين وقبلها وقعة الجمل التي حارب علي فيها السيدة عائشة وطلحة والزبير وقاسى ما قاساه بحجة أنه كرم الله وجهه لم يعاقب قتلة سلفه عثمان بن عفان، إن هاتين الوقعتين صارتا مثالا سيئاً سهل على العرب فيما بعد أن يقف بعضهم إزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف عظيماً مهيباً.

وبعد أن فتح العرب نصف العالم بثمانين سنة، هدأ سيلهم الطامي بسبب عصبانيتهم القبلية ومنازعاتهم الداخلية التي أيقظوها بعد أن كان الإسلام نهاهم

عنها.

وأذكر أنني صرت ألمح وقتئذ تجاه أرض صفين ووسط أرض الجزيرة أكمة صخرية بارزة فوقها بناء عظيم خرب علمت أنه (قلعة جعبر) فتذكرت ما كنت أقرؤه عن أنها المكان الذي اغتيل فيه عماد الدين زنكي والد البطل الإسلامي العظيم نور الدين محمود، وأن فيها ضريح سليمان شاه جد السلاطين العثمانيين الذي غرق في الفرات فيما كان يحاول عبوره مع عشيرته فدفنوه في هذه القلعة⁽¹⁾. وصرت أسائل نفسي ترى ما السبب في مجيء هذا الشاه بعشيرته إلى هنا وعبوره من هذا المكان دون غيره؟ وإلى أين كان يقصد، أكان يقصد بلوغ بلاد الشام التي كانت وقتئذ بيد السلاطين المماليك الترك حكام مصر (القرن السابع الهجري) أكان يريد اللجوء إلى هؤلاء السلاطين والانخراط في خدمتهم. كما هي عادة قبائل الترك في تلك العهود. ولو لم يغرق هذا الشاه وبلغ مناه من اللجوء والخدمة لتغير وجه التاريخ ولم يؤسس أعقابه الدولة العثمانية التي بلغت فيما بعد منتهى العظمة وسعة الملك واستمرت ستة قرون ونصف 699 . 1341) ثم انقرضت كما انقرضت قبلها دول وإمارات كثيرة وسبحان الذي لا يزول ملكه.

وفي الضحى العالي من اليوم الثالث لمغادرتنا حلب مررنا قرب تل سألت عنه فقالوا (تل الفدين)⁽²⁾ بكسر الفاء وفتح الدال ومن بعده بلغنا مخفراً اسمه (الحمام) ظننا أننا سنجد فيه حماماً فلم نجد ولم يعرفونا سبب هذه التسمية وذكروا أن في شماله على بعد قليل فوق هضبة مطلة على الفرات أطلال مبانٍ أثرية قالوا إن اسمها (تفساح) من جملتها حصن وسور قديمان لم أجد وقتاً لزيارتها. وقد

(1) سليمان شاه مدفون بجوار القلعة وليس داخلها (المحقق)

(2) تل الفدين على نهر الخابور، ويقصد المهندس (الثديين) وهما تلان صغيران يشبهان الثديين في موقع الحمام (المحقق).

استدليت من هذه الأطلال وغيرها التي رأيتها أو سمعت بخيرها طول طريقي هذا أنه كان في وادي الفرات عمران وازدهار كبيرين أخنى عليهما الذي أخنى على لبد. وصارت حالة هذا الوادي حينما مررت به ما يرثى له.

وبعد مخفر الحمام انطلقنا نحو الشرق وعيوننا لا تزال تكتحل بمرأى الفرات والمزارع الخضراء الممتدة على ضفتيه، ونطرب لسماع أنين البكرات التي ترفع الماء منه بالدلاء الكبيرة وتسقى الزروع، كما نطرب لغناء الفلاحين العاملين بها وهم وراء دوابهم الهزيلة الذاهبة والآيبة حين جر حبال الدلاء. وبعد ساعتين بلغنا مفرق الرقة وسلم الحوذي ما يحمله من حقائب البريد الخاصة بهذه البلدة. ولم يكن في تلك الأيام جسر يمكنني من الوصول إليها وزيارتها ولو زيارة خاطفة. فاكثفت باللقاء نظرة عليها من بعيد. وصادفت بعض أهلها في المفرق ينتظرون السفينة للعبور وبادلتهم الحديث شأني في كل مكان أرى فيه فائدة للاستعلام عن الأمور الجغرافية والتاريخية فحدثوني ما وسعتهم المعرفة عن عمران الرقة الغابر ومجدها الدائر ولاسيما في عهد العباسيين وإنها كانت مصيفاً لهارون الرشيد، فقلت لهم أظنها لم تكن بمعنى المصايف في زمننا بل مركزاً لانطلاق الجيوش العربية المجهزة لغزو بلاد الروم البيزنطيين (الأناضول الحالية) خلال فصل الصيف.

ثم حدثوني عما في الرقة من الآثار العربية مآذن وأطلال قصور ولاسيما الأواني الخزفية الجميلة، قالوا إنهم يعثرون عليها بعد الحفر والنقب ويبيعونها من تجار العاديات في حلب بأثمان طيبة.

وبعد ست ساعات من مفرق الرقة بلغنا قرية كبيرة اسمها (السبخة) فإذا

بها مركز ناحية صادفت فيها مديراً من أبناء الدير ونبهاؤها اسمه السيد شكري⁽¹⁾ رأيت منه ترحاباً واهتماماً في التأهب لمكافحة الجراد الذي بدأ ينقف يومئذ. وفي السبخة سوق وحوانيت وبساتين ومنظر جميل على الفرات ومنطلق للسفن التي كانت تمخر فيه.

وقبيل الغروب غادرنا السبخة. وسلكنا سهلاً فسيحاً رملياً تكثر فيه أشجار الطرفاء، وتؤلف على يسار الطريق بينها وبين الفرات غابة عظيمة كانت أشجارها وقتئذ باسقة وكثيفة. يضيع فيها الخريت كما ضعت فيها بعد أنا ورفيقي الخيال الدركي حينما توغلت لبلوغ القرية التي في شمالها على الفرات بنية الإشراف على مكافحة الجراد. ولم نهتدي إلى الطريق إلا بعد جهد ووقت. وكانت هذه الغابة وأمثالها في العصور الغابرة مأوى الأسود إلى أن انقرضت قبل قرن أو قرنين من زمننا. وانقرضت الغابة يا للأسف وصارت أرضها قاعاً صفصفاً على ما لمحت من بعد.

وفي منتصف الليل بلغنا مخفر (معادن)⁽²⁾ وهو وسط ذلك السهل الأفيح الذي يدعونه (الحاوي) ولم يكن هناك وقتئذ سوى هذا الحفر لكننا صادفنا حوله مخيماً كبيراً لمهاجري الأرمن شبيه الذي صادفناه في الدبسي وعلى نفس الوتيرة من الإعياء والبؤس والأمراض الفتاكة والزحف إلى مصير مجهول العاقبة.

وبعد معادان بساعة أو أقل تركت طريقنا سهل الحاوي وصعدت إلى هضبة طباشيرية ذات تلعات عديدة جرداء قفراء وابتعدنا عن الفرات الذي قيل لي

(1) هو السيد شكري بقجه جي، كان مديراً لناحية السبخة في ذلك الوقت من أبناء دير الزور كان أديباً يتذوق الأدب التركي والتاريخ وذا أخلاق عالية بقي في الإدارة إلى أن أحيل إلى التقاعد مات سنة 1963.

(2) معادن (الناشر).

في معادان أن على ضفتيه قلعتين أثريتين متقابلتين، اسمهما (حلبية) و (زلبية) وبعد بضع ساعات عادت الطريق وانحدرت نحو الحاوي، وبلغنا (خان التنبني) وهو كبير وعامر، صادفت فيه قافلة تجار عراقيين قادمين من بغداد إلى حلب، سمعتهم يتكلمون باللهجة العراقية العميقة التي وجدتها غريبة عليّ، وصادفت أيضاً مركبات عديدة كمركبتي تحمل عدداً من ضباط الألمان الراجعين من جبهة كوت العمارة إلى بلادهم للاستجمام وتبديل الهواء.

ولما رأوني ضابطاً عثمانياً ذا قوام وهندام لا يقلان عما لديهم، وكانوا أكثر ما يحترمون هاتين المزيّتين مع معرفة إحدى اللغات الأوروبية، أقبلوا عليّ وسألوني عما إذا كنت أعرف الألمانية؟ فصعرت خدي كما كانوا يصعرونه هم تجاهنا على رغم محالفتهم لنا. والغربي يرى نفسه دوماً من طينة فوق طينة الشرقي، ولو كان حليفه أو لفيّفه. ولما أجبتهم بإشارة تدل على عدم معرفتي الألمانية، قالوا والإفرنسية، قلت: نعم أعرفها، وحينئذ انهلوا عليّ بأسئلة يومئذ. فأجبتهم بما وسعه علمي واختصرت وانسحبت من أمامهم بلطافة لئلا يؤدي الحديث إلى ما لا خير فيه لي ولهم. وانطلقت نحو مخفر التنبني الرابض فوق تل مرتفع عن الطريق.

وكان في هذا المخفر الذي مررت به قبله وبعده رجال من الدرك أبناء الدير، كانوا حينما أبادرهم الكلام بالعربية ولا أشمخ عليهم مثل بعض الضباط الذين يمرون بهم يرحبون بي ويكرمون وفادتي ما وسعهم الانقطاع في ذلك البر الأقر والحرمات السائد في أيام تلك الحرب. وهكذا كان في كل سفري هذا ثم في تجوالي في أثناء المكافحة، ما أن يعلم الموظفون والأهلون من حضر وبدو الذين أصادفهم وأتصل بهم أنني من غير الطراز الذي عودهم رؤيته حتى يقبلوا عليّ ويرحبوا ويلبوا مطلبي ما وسعهم الجهد.

وغادرنا مخفر التنبني قبل الغروب واتجهت طريقنا نحو الجنوب الشرقي

نرى الفرات على يسارنا حيناً بعد حين، ونمر من جنوبي قرى عديدة متصلة المزارع، بيوتها أخصاص يدعونها سيابيط. وكنا نسمع أنغام الكرود وأغانى سقاتها. ومازلنا نغذ السير حتى بلغنا (دير الزور) حين شروق الشمس، وكان ذلك في صباح اليوم الرابع من خروجنا من حلب.

وكان أول عملي بعد دخولي الدير السعي لمقابلة متصرف اللواء، واسمه (سعاد بك)⁽¹⁾ الذي لم أعرف لقبه، لأن الترك كانوا لا يضيفون أي لقب على أسمائهم. فلا تدري أي سعاد هذا الذي تقابله. ومازالوا على هذا النقص الذي تفردوا به بين العالم حتى أمرهم عميدهم مصطفى كمال قبل ثلث قرن أن يتخذوا الألقاب فاتخذوها وإن برزت هذه الألقاب بمعاني وأشكال غريبة عجيبة على ما يعرفه المطلعون على شؤونهم الحاضرة.

وقد وجدت هذا المتصرف على جانب من الرقة والأدب والفضل. قضى قبل الحرب عدة سنين في إحدى وظائف السفارة العثمانية في باريس. وموظفو السلك الخارجي في كل دولة كثيراً ما يكونون من هذا الطراز الراقي. وهو لما عرف مهمتي ومنزلتي أمر بتهيئة بيت أقيم فيه طوال أيام عملي لديه. فوجدوا لي بيتاً على قدر حاجتي. كان على الشارع العام وقرب حديقة البلدية، فأويت إليه، واستدعى المتصرف السيد علي صائب رئيس كتاب مجلس إدارة اللواء يومئذ وقدمني إليه وأوصاه بتلبية مطالبني في كل ما يتعلق بشؤون مكافحة الجراد.

وقد عرفت من بعد أن السيد علي صائب المذكور كان من خيرة أدباء الدير وفضلائها⁽¹⁾. وقد تلقيت منه كل عون وعطف، كما لقيت ممن تعرفت

(1) علي سعاد بك نقل في نفس السنة إلى بغداد معاوناً لواليتها. (الناشر)

(1) هو علي الفرخان ولد الدكتور آصف صائب من أسرة البورباخ الديريين رقي فيما بعد إلى وظيفة قائمقام (مدير منطقة) توفي. (المحقق)

بواسطته من وجهاء الدير وأبنائها ترحاباً والتفاتاً مازلت أحمل آثار حمدها.

إن أعمال مكافحة الجراد وتجوالي في البراري والقفار وعدم مكوثي في الدير كثيراً شغلني عن البحث والدرس، كما كنت أتمنى، كي يصح لي الكتابة عنه كما ينبغي. ولهذا سيكون كلامي عن الدير وحالته سنة 1916 مختصراً يعذرني القراء عليه.

كانت بلدة الدير عام 1916 بقدر نصف ما هي عليه الآن⁽²⁾. وما أظن سكانها كانوا يتجاوزون العشرين أو الخمسة وعشرين ألفاً. إلا أن مخطط البلدة الحالي مشهور من قبل ذلك التاريخ. ولا أدري إلى أي متصرف عثماني يعود الفضل في هذا التخطيط الجميل المنقطع النظير في كل البلاد السورية، ولأي من السنين السابقة لسنة 1900 ففيها شارع رئيسي طويل عريض مستقيم يخترق البلدة في منتصفها من الغرب إلى الشرق، فيه بعض الشبه لشارع الرشيد في بغداد.

وفي قبلي هذا الشارع تمتد خانات عديدة كانت فنادق تلك الأيام ومأوى القوافل الكثيرة الذاهبة الآتية بين بغداد وحلب. ولا بد أن تكون قد تبدلت الآن إلى مرائب ومستودعات بعد تحول طريق بغداد إلى الصحراء بالسيارات أو إلى الجو بالطائرات. وبعد أن حرمت دير الزور من هذا المورد.

وكان في قبلي هذا الشارع أيضاً حديقة للبلدية كبيرة حسنة التنظيم، فيها مطعم ومقهى نظيفان بإدارة بعض مهاجري الأرمن يومئذ. كنا نلجأ إليها ونأكل طعامنا ونشرب قهوتنا فيهما.. وفي شمالي هذا الشارع سوق مغطى ذو حوانيت عديدة، كان فيها بعض السلع لا جميعها من جراء الحرمان الذي اقتضته الحرب العالمية. وهناك أسواق مكشوفة عديدة تحتوي في جملة ما تحتويه على حوانيت القصابين الذين يلبسون جلابيب حمر بلون الدم الذي يريقونه. وكان منظرهم هذا

(2) آخر زيارة زار فيها دير الزور 1950 وتقديره صحيحاً.

غريباً عليّ لم أر مثيلاً له في كل البلاد السورية. وهناك من منتهى الشارع المتجه نحو الفرات جوامع فوقها قباب مخروطية ومآذن أسطوانية الشكل، ودار الحكومة التي كانت يومئذ شبه خان كبير في وسطها باحة واسعة حولها غرف عديدة للدوائر الرسمية كلها.

وكان على الفرع الصغير للفرات جسر راكب على سبع قناطر من الحجر الصلب. وعلى الفرع الكبير جسر راكب على زوارق عديدة ضخمة مقرون بعضها إلى بعض بسلاسل حديدية شأن الجسور القديمة التي أدركتها في بغداد أيضاً. وشوارع الدير وأزقتها مستقيمة تماماً والشخص الغريب لا يقدر أن يميز بين زقاق وآخر بصعوبة. لأن كلها مستقيمة ومتشابهة بالبنائيات. ومن الشارع الكبير تتفرع الأزقة الممتدة من الجنوب إلى الشمال وبالعكس. والدور متشابهة بهندستها. فهناك في كل دار غرفتان أو أربع بينها شبه إيوان وأمامها باحة سماوية تحتوي على بئر ودرج للصعود إلى السطح. وعدد طبقات المباني لا يتجاوز الاثنتين. ولكن دور الأثرياء مبنية على طراز أحدث. لاسيما تلك التي في الحويجة، وهي الجزيرة المحصورة بين فرعي الفرات وبيوت الأثرياء هذه عالية يصعد إليها بدرجتين أو ثلاث وتكون مسقوفة غالباً. والحدائق قليلة في البيوت. ولعل ذلك لصعوبة نقل الماء إليها وإروائها. والمراحيض كثيراً ما تكون على السطوح. والأزقة خالية من المجارية العامة. وهذا وذاك كانا من نقائص الدير.

وجدران الدور من الأحجار غير المنحوتة دائماً أو المنحوتة إلى علو متر في أسفل الجدار ولا يطلون الجدران الخارجية بالطين أو الكلس إلا في دور الأثرياء. وأبواب المنازل تبنى غالباً من الحجر الرخامي الخاص بالدير. ولها مفاتيح كبيرة جداً صعبة الحمل. وإطارات النوافذ من هذا الرخام أيضاً. والسطوح وأرض الغرف وجدرانها تطلّى بالجص والحصى كثير في دير الزور وشائع الاستعمال وهو يمتص الماء كيبيلون حلب. ولذا فإن غسل أرض الغرف بالماء

غير معروف، بل يكفي كنسها ورشها رشاً بسيطاً لا يأتي بالنظافة التامة التي تؤتى بالشطف والمسح في بقية المدن السورية.

والبناء سهل جداً. فليس هناك إلا تركيب الأحجار ورصفها ووضع الجص بينها بدلاً من الطين والكلس. والأزقة في ذلك العهد كانت غير مبلطة ولا مزفتة. وإذا هطل المطر بغزارة تعذر السير. لأن المستنقعات تكثر والوحول تزداد.

ومما أذكره عن الدير أن الكثرة الغالبة فيها مسلمة سنية. ولم يكن هناك من النصارى واليهود إلا عدد ضئيل. لكنها عند إجلاء الأرمن وسوقهم إلى وادي الفرات وبراري الموصل بقي قسم كبير منها هنا. واستقروا في حي الدير العتيق ثم أخرجوهم وأبعدوهم إلى براري الموصل فجرى لهم ما جرى.

وأذكر أن أهل الدير الأصليين كانوا ينقسمون إلى قسمين كبيرين ينتسب كل ديري إلى أحدهما. وهما: (الوسطيون) و (الشرقيون) وكان أفراد القسم الأول يسكنون في غربي البلدة والقسم الثاني في شرقيها. ومن المؤسف أنه كان بين أفراد هذين القسمين حزازات ومشادات قديمة تخبو تارة وتشب تارة لحادث قد يكون بسيطاً. فيهرع العقلاء لإطفاء الفتنة. وهذه الأمور من بقايا العصبية الجاهلية والنعرات القبلية التي كانت وما برحت تضر العرب في جميع أقطارهم. وإنني أرجو أن تكون قد زالت من مدينة الدير بعد أن شاعت الثقافة وكثر الوعي بين النشء الحديث.

وأذكر أنني رأيت مرة عرساً حمل الحمالون فيه الأطعمة والحلويات على رؤوسهم إلى بيت العريس، ثم سار النساء والأولاد في الأزقة والشوارع ينشدون ويهزجون أهانج الفرح. وقيل لي أن أعظم طعام في أعراسهم هو (التروذ) وإن الديرين أخصائيون في تجهيزه. ولم يتح لي تحقيق هذا.

أما المآتم فلدير الزور عادات خاصة هي أشبه بمآتم البدو. فالنساء يلطمن خدودهن. ويسدن شعورهن ويضربن صدورهن ويعولن ويبكين بشدة.

ويندبن الميت بأنغام شجية تنشدها نساء متخصصات بهذه المهنة الكثيرة، فيها
جمل في رثاء الميت، يرددنها بين الدموع والزفرات ويذهبن كل صباح إلى المقبرة
ييقين في جانب قبر ميتهم إلى المساء. ويزعمن أنهن يؤانسهن وتدوم العملية عشرة
أيام.

وإن أنس لا أنسى أنني قبل أن أعرف هذه العادة سمعت قبيل الغروب وأنا
في بيتي الصغير أصواتاً ناعمة حزينة ترافقها دقات دفوف، ما عرفت هل هي ترح
أو فرح. وخرجت لأستقصي الخبر فرأيت مشهداً عجباً، رأيت جمعاً كثيفاً من
النساء (ربما كان عددهن حوالي مئة امرأة) اللابسات العبي السود الفضفاضة
والمحجبات بأغطية صفيقة، يمشين كتلة واحدة مشياً بطيئاً وموزوناً، وفي
وسطهن المرأة الندابة تنشد أناشيد الرثاء بأنغام شجية ترددها البقية على نفس
الوتيرة. وبين تلك الكتلة نساء يحملن الدفوف ويدقنها، ونساء أو فتيات يقفزن من
حين إلى آخر ويطنن وتهتز أعطافهن وتنتفض نهودهن أمام أنظار المارة.

ولما رأيت هذا المنظر المخالف للشرع والعقل استغربته واستنكرته، ورحت
في اليوم التالي إلى صديقي المرحوم السيد علي صائب أحكي له ما رأيت وأبدى
استغرابي واستنكاري، وأرجوه أن يسعى لإبعاد هذه العادة الجاهلية عن هذه البلدة
الجميلة التي أحببتها وودت لها كل خير. فخالفني رحمه الله بشدة وقال: كلا إن
هذه من عاداتنا القومية وتقاليدينا المحلية، لا نقبل بها جدلاً ولا نبغي عنها حولا.
وحاولت أن أقنعه بصواب رأيي فلم يقبل، وسكت على مضض وتعجبت
وانصرفت.

وأرجو أن كون هذه العادة وأمثالها غب مرور قرابة نصف قرن قد زالت
حتى الآن بفضل العلم والوعي اللذين انتشرا في الدير انتشاراً محموداً على ما
بلغني.

وكانت نواة بلدة الدير في حيها القديم الباقي منذ قرون واسمه (الدير

العتيق). زرتة ذات يوم وجسست خلاله، فرأيت أزقة ضيقة متمعة هابطة صاعدة وهي على ترابها وغبارها وأوحالها. ورأيت حول هذه الأزقة بيوتاً مكتظة مبنية من الحجر الخشن والهواء والشمس. وهناك ما لا يحسن ذكره من المناظر المؤذية والروائح التي تزكم الأنوف وعياط وهياط واختلاط الحابل بالنابل. وعجبت بعد هذه الزيارة كيف يعيش سكان هذا الحي ويحسبون أنفسهم من الأحياء. وزاد في الطين بلة يومئذ إقبال مهاجري الأرمن على هذا الحي واستجارهم بيوتاً أو غرفاً فيه وسكنى كل أسرتين أو ثلاث غرفة واحدة، بعضهم فوق بعض، بقوا هكذا أشهراً عديدة إلى أن أخرجوهم وأبعدوهم إلى المصير الذي نوهنا به.

وقد علمت من بعد أن هذا الحي العتيق قد هدمته البلدية وأزالته كله أو أكثره، وصار الآن في خبر كان.

ومن ذكريات الدير التي لا أنساها تلك الساعات التي كنت أقضيها على ضفة الفرات صباحاً أو مساءً في مقهى متواضع كان قرب الجسر الصغير يدعونه (جار داق)⁽¹⁾ والكلمة تركية، لا أدري كيف اخترقت أسوار هذه البلدة العربية، ومعناها السقيفة أو الكوخ المبنى من الأغصان. والجارداق تطله الأحجار الوارفة العالية. وأمامه الفرات يسير بهدوء ووقار. والمصاييح التي كانت تثار بزيت الكاز تتلألأ على وجه الماء وتهتز وتتأرجح مع سريان النسيم العليل. وتحت كل شجرة يلتئم عدة أشخاص يجلسون على كراسي خشبية واطئة يسمرون ويلهون.

ومن الذكريات التي لا أنساها أيضاً وقفتي أحياناً على الجسر الخشبي الكبير أتملى بجمال الطبيعة المجسم بمنظر الفرات الواسع كالبحر، الهادئ كالصحراء، الساكن سكون الليل. وترسل الشمس أشعتها الذهبية وقت الأصيل تودع الماء وتلونه بألوان قوس قزح. وهنا وسط النهر حويجة (جزيرة) وهناك كرد

(1) الكلمة تلفظ في لغة أهل دير الزور: جرداق. (الناشر)

تدور بكرته وتئن ويتدفق ماؤها في الساقية الزاهية لري الزروع، ومن بعيد قارب صغير يسير الهويناً. وفي كل ذلك جمال وجلال وروعة تأخذ بمجامع القلوب.

ومن ذكرياتي عن الدير أن الصحة جيدة في الجملة بفضل هوائها الصحراوي الجاف وشمسها الساطعة والوجوه سمر أو شبيهها، والعيون نجل والقامات هيف والجمال غير يسير. وكنت ألحظ أن الديرين وأهل قرى وادي الفرات عامة المعروفين بالشوايا ماهرون جداً في السباحة التي يتعلمونها منذ الصغر. والرجال والنساء في القرى يعبرون الفرات سباحة ويضعون ثيابهم على رؤوسهم ويخوضون ويسايرون الماء في جريانه، فإذا وصلوا إلى المكان المقصود خرجوا رويداً رويداً ولبسوا ثيابهم وانطلقوا.

ويجيد الديريون أيضاً ركوب الخيل وسريان الليل وتحمل شظف عيش الحياة وكان سلاح الدرك في العهد العثماني يفضل شباب الدير على غيرهم بسبب هذه المزايا وقد دام هذا التفضيل على ما علمت في عهد الانتداب والعهد السوري حتى في سرايا الهجانة وأمثالها.

ومما أذكره كثرة ما كنت أراه في القرى لدى سكانها الشوايا من أمراض العيون ومن مرض تناسلي اسمه (البجل)، وزادت طينته أهل هذه القرى بلة حينما صاروا يركضون وراء موتى قوافل الأرمن الذين كانوا يتساقطون بحمى التيفوس. فيعرون الميت مهما كان أنثى أو ذكر من ثيابه ويلبسونها ويعدونها من غنائم العمر. وكان مما يضحك ويحزن لبس رجال الشوايا ثياب النساء الميتات، ولبس نسائهم ثياب الرجال الميتين، لا يفرقون هذه عن تلك، ومن زوائد القول أن الحمى التي طرحت الأرمن كانت تتناولهم بعد لبس تلك الثياب فيتساقطون هم أيضاً. وكم من مرة كنا نصل إلى بيت من الشعر منفرد وننادي فلا نجد مجيباً. ونرفع الرواق فإذا بالأب والأم والأطفال أموات من جراء العدوى من الأرمن.

هذا ولم يكن في الدير سوى حمام واحد. لأن أكثر السكان يستحمون في

الفرات ويكتفون به. وقد رأيت المقاهي أكثر من الحاجة. والإقبال عليها شديداً، وقضاء الوقت بالكسل والخمول فيها وشرب الشاي ذي اللون القاتم والماء المعقد الشديد الحلاوة منتشر. وكان ثمن السكر في أيام تلك الحرب الضروس باهظاً، أظنهم كانوا يستعيضون عنه بدبس التمر أو نحوه.

ولم أجد في بلدة الدير من المباني الأثرية ما يستحق الذكر. أما في (الميادين) التي زرتها بحكم عملي ومكثت فيها عدة أيام، فقد صعدت إلى قلعة هناك اسمها (الرحبة) رابضة فوق تل شاهق مخروطي صعب الصعود والنزول جداً. فرأيتها قلعة عربية صغيرة ذات جدران عالية تحيط بأرضها المدورة الشكل. أحجارها ضخمة ترابية اللون، شامخة صامدة على كل الدهور. ولم أعثر فيها على كتابة أو نقش أستدل بها على اسم بنائها وتاريخ بنائها.

وفي حضيض هذه القلعة قبور قديمة ومزار باسم (عين علي)⁽¹⁾ رأيت نساء الميادين يقصدنه ويذبحن فيه الذبائح ويقرآن الأدعية ويمرحن طول النهار ثم يرجعن ولم أعرف أي علي هذا ومتى كان وكيف كان⁽²⁾ وزرت وقتئذ قرية البصيرة التي عند مصب الخابور. وقد انتقلت إليها بالسفينة من (الميادين) وصادفت فيها مدير ناحية من أبناء الدير وأماثلها اسمه فيما أذكر (عبد الله بك)⁽³⁾. وكان شهماً هامماً أراني ترحاباً والتفاتاً محمودين. وطففت وقتئذ ضفاف الخابور، وأشرفت على

(1) (عين علي) ليست في حضيض قلعة الرحبة بل تبعد عنها ستة كيلو مترات وكانت بلدة صغيرة اسمها مشهد وفيها مسجد متهدم ومنارة مثمنة ودور مخربة تقصد العين نساء المنطقة يذبحن الذبائح التي هي لنذورهن.

(2) يقصد سكان المنطقة بـ علي: الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. وقد بنى المسجد وبنيت المنارة على اسمه. والأهلون يسبحون في العين للتبرك.

(3) عبد الله بن حج إسماعيل من دير الزور توفي فيها. (الناشر)

نواعيره المشابهة لنواعير حماه، وبلغت قرية (الصور) ورجعت إلى الدير أقطع
براري الجزيرة المترامية الأطراف وأتظنى بسعير شمسها اللاهب وأصادف عاصفة
عجاج تغطي الأبصار وتسد الأنفاس. وهكذا إلى أن قضينا على آفة الجراد
الزحاف بأقل خسارة ممكنة في الزروع وعلى قدر وسائلنا الضئيلة يومئذ. ولما كبر
الجراد وطار ولم يعد ثمة مجال لمكافحته وانتهت مهمتي، ودعت الدير وأهله،
وهرولت إلى حلب فدمشق. وقد حمدت الله يومئذ على الخلاص من جولات
ومتاعب شاقة دامت على ظهور الخيل أكثر من خمسين يوماً في وادي الفرات
العظيم أنتقل من قرية إلى قرية ومن سهل إلى وعرة. ألاحق العن مخلوق وأشدّه
ضرراً.

وأتذكر الآن بلهفة الشباب الذي كنت في عنفوانه والجلادة التي كانت
تساعدني على مضض تلك المشاق وانحسر على زوالهما.

هذا بعض ما اعتصرته من الذاكرة غب مرور قرابة نصف قرن على
سفرتي الأولى إلى دير الزور. أكتفي به الآن لضيق المجال. ولعل أبناء دير
الزور الأكارم ممن أدركوا مثلي تلك الأيام العصيبة يصادقون على ما وصفت
ووصفت. ويجعلوني مبتهجاً في كوني سجلت نبذة من تاريخ بلدتهم الطيبة في
مجلتهم القيمة. وما كان هذا التسجيل إلا نزولاً عند رغبة صديقي صاحبها الفاضل
مؤرخ دير الزور وابنها البار، أكثر الله من أمثاله ووفقه في أعماله.

دمشق

أحمد وصفي زكريا